الأستاذة: لعيدي سليمة، مقياس الشعرية العربية، السنة: الثانية ليسانس، التخصص: آداب، الفوج:5.

-------------------------------------------------------------

**المحاضرة 3: وظيفة الشعر**

**-------------------------------------------------------**

**تمهيد:**

إنّ الحديث عن وظيفة الشعر قديم قدم الشعر نفسه، لأنّ الشعر ارتبط منذ ظهوره أو نشأته بتحقيق غايات معيّنة يهدف إليها الشاعر.

وقد اختلفت هذه الغايات باختلاف الاتّجاهات الفكرية، والنظريات النقدية التي تعالج مفهوم الشعر، وتأثيره في الحياة، ولكن جميع الآراء المختلفة التي طرحت في بيان وظيفة الأدب أولا ووظيفة الشعر ثانيا انطلقت من منطلقين اثنين:

* الأول: يبيّن أنّ الفن عموما والأدب والشعر فرع منه، ووظيفته التعليم والتهذيب، وتحقيق هدف اجتماعي، إصلاحي، إعلامي، فهو أداة نافعة يشترط أن يحسن تجنيدها في خدمة المجتمع وتربية الأجيال.
* الثاني: يرى أنّ الفنّ للمتعة والإطراب، فهو مجرد من الغاية النفعية، وقد يغلو هذا الاتجاه فيذهب بعضهم إلى حدّ القول إنّ النفعية تفسد الفنّ.

وذهب قوم إلى الجمع بين غايتي المنفعة والمتعة، ورأوا أنّ إحداها لا تتحقق إلّا بوجود الأخرى، وصرحوا بقولهم " إنّما همّ الشعر أن يعلّم ويمتع".

1. **وظيفة الشعر:**

**أولا: وظيفة الشعر عند أفلاطون وأرسطو:**

لقد أبعد أفلاطون الشعراء عن مدينته الفاضلة لأنّه يظنّ أنّهم يملؤون عقول الناس بالأوهام والخرافات، كما يصرفون الناس عن جد العمل إلى هزل القول، فلا وظيفة للشعر عند أفلاطون.

أمّا تلميذه أرسطو فقد ربط وظيفة الشعر بالطبيعة الإنسانية في بحثها عن المتعة والإحساس بالجمال فقال: " يبدو أنّ الشعر على العموم قد ولده سببان... راجعان إلى الطبيعة الإنسانية، فإنّ المحاكاة أمر فطري موجود للناس منذ الصغر، ثمّ إنّ الالتذاذ بالأشياء المحكية أمر عام للجميع".

**ثانيا: وظائف الشعر في الأدب العربي القديم:**

حينما نأتي إلى الثقافة العربية القديمة، فنجد للشعر وظائف متعدّدة حسب الخلفية الثقافية والمقياس النقدي الموجه لرؤية الناقد، فهذا الجاحظ يعبّر عن ذلك بقوله: " طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يتقن إلّا غريبه، فرجعت على الأخفش فوجدته لا يتقن إلّا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتّصل بالأخبار، وما تعلق بالأيام والأنساب، فلم أحظر بما أردت إلا عند الأدباء والكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد عبد المالك الزيات".

إذا تأمّلنا كلام الجاحظ فنجد فيه إشارات واضحة تحدّد وظيفة الشعر، فالأصمعي لكونه لغويا جعل وظيفة الشعر الاحتفال بالجزل والغريب من اللغة وبأخبار العرب وأيامهم، كما هو الشأن في شعر امرئ القيس وزهير والنابغة. أما الأخفش العالم اللغوي والنحوي الصارم فيوصل وظيفة الشعر بتيسير تعلم قواعد اللغة العربية والانضباط إليها. ويذهب الجاحظ بوظيفة الشعر إلى الاحتفال بأفانين اللغة والتطريب للترويح عن النفس عند الكتّاب الشعراء، الذين يبدعون صدقا وهواية لا احترافا، كابن وهب والزيات.

إذا أمعنا النظر في تاريخ الأدب العربي عامة والنقد العربي خاصة فنجد أنّ وظيفة الشعر اختلفت باختلاف الزمان والمكان والأشخاص، إلاّ أنّ هناك وظائف معيّنة اشتهرت بين النقاد، وهذه الوظائف بعضها كانت عامة والبعض الآخر كانت مخصوصة بزمن أو بإقليم، ومن هذه الوظائف:

1. **الدفاع عن القبيلة:**

تعتبر من أبرز وظائف الشعر وأقدمها، لأنّ الشاعر يدافع عن قبيلته ويحميها، يفتخر بمآثرها، ويدافع عن سياستها ويمجّدها، ويصوّر قوتها، ويهاجم الأعداء المتطاولين عليها، وقد صوّر أبو عمرو بن العلاء فرط حاجة العرب إلى الشعر قائلا: " الذي سقيّد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم ، ويخوّف من كثرة عددهم وسهابهم شاعر غيرهم فيراقب غيرهم "، وقد أورد ابن رشيق في العمدة نماذج من العر الذي قيل في الدفاع عن القبيلة والانتصار لها من الخصوم تحت عنوان " باب احتماء. والواقع أن الشاعر في العصر الجاهلي " نبيّ قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب، ووظيفته الأساسية والطبيعية أن يكون لسان عشيرته " يحمي عرض بني قبيلته ويخلد بلادهم ويشارك في المعارك راشقا العدوّ بسهام شعرية لها قوة خارقة للعادة"، كما يصنع معرفتها وعلمها، فيتهنى بأمجادها وأيامها وأنسابها وبمعتقداتها، ويحمي شرف الدم والعرق، إنّه مرآة تنعكس عليها الصورة المثالية للجماعة القبلية.

كانت هذه الوظيفة من الوظائف في العصر الجاهلي، ولما جاء الإسلام وانطفأت نار العصبية القبلية تحوّلت تلك الوظيفة من حماية القبيلة إلى حماية الدين، حيث يستخدم الشاعر موهبته الشعرية لحماية دينه.

1. **مصدر المعرفة (ديوان العرب):**

لقد جعل العرب الشعر وعاء تجاربهم، ومستودع حكمتهم، وهو ديوان معارفهم وعلومهم، وتكثر استعمال عبارة "الشعر ديوان العرب" التي تعنى بمصطلح العصر " دائرة معارفهم"، فالشعر مصدر للمعرفة ووعاء للثقافة.

وقد أحس النقاد العرب بالقيمة المعرفية للشعر العربي منذ وقت مبكر جدا، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

* عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجعل الشعر أصح علم عرفته العرب حيث يقول: " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه".
* عبد المالك بن مروان يرى الشعر مصدر الخبرة في تعلّم مهارات معيّنة " من أراد أن يتعلّم ركوب الخيل فليرى شعر طفيل"
* قال ابن فارس: " الشعر –شعر العرب- ديوانهم وحافظ آثارهم، ومقيد أحسابهم".
* قال الثعالبي : " كما يقال: الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها، وكنز أدبها".
* وضح ابن قتيبة عن احتواء الشعر العربي على كم هائل من المعرفة والخبرة والحكمة بقوله: الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، ... والحجة القاطعة عند الخصام...".
* جعل عبد الكريم النهشلي الشعر سببا أساسيا لبقاء تاريخ القبائل ومآثرها قائلا: " فلولا الشعر لا يقم بهذه الأفعال علم، ولا رفع لها منار..."
* رأى ابن طباطبا العلوي أنّ المهمة الأساسية للشعر أنّه مصدر صادق لمعرفة المثل والتقاليد العربية، فقد أودع القوم في أشعارهم حصيلة خبرتهم وتجاربهم وما تضمنته حياتهم من أحداث وعادات، فهو إذن وثسقة معرفية لحياة العرب، وثقافة لا بدّ منها لكل متأدب يريد أن يعرف تراث أمّته وحضارته".

إذن الشعر ديوان العرب، ومادة تاريخهم، وسجل حياتهم، ولذا حرصت العرب بحفظ أشعارها لتأخذ العبرة منها وتوثق العلاقة بين حاضرها وماضيها، ولتكون معلما وهاديا للأجيال القادمة.

1. **الحكمة:**

إنّ الشعر عند العرب مصدر الحكمة والتربية، وكان الشاعر يربي قومه على القيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة.

الشعراء يقومون بدور الأساتذة والمصلحين، وهم يرشدون الناس بشعرهم ويجعلون سبل المكارم ممهدة لطلابها.

ولارتباط الشعر بالحكمة كانت العرب لا تعد الشاعر فحلا حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره، فلم يعد امرئ القيس فحلا حتى قال: "

والله ما انجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

1. **فهم القرآن والسنة:**

كان الشعر العربي مدخلا مهما لفهم الأسرار القرآنية، وفك رموزه ودقائقه، وكان عمر بن الخطاب وابن العباس رضي الله عنهما دائما يفسّران القرآن الكريم بالشعر الجاهلي، روي عن عمر أنّه سأل عن معنى قوله " أو يأخذهم على تخوّف" فقام شيخ من هذيل وقال: هذه لغتنا، التخوّف التنقص فقال هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال : نعم، وروى قول الشاعر:

تخوّف الرجل منها تامكا فردا كما تخوّف عود النبعة السَّفِن

فقال عمر لأصحابه: " عليكم بديوانكم. قالوا ما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم".

وقد قال ابن العباس رضي الله عنه: " إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب".

كما كان ابن الأزرق يسأل عن عباس رضي الله عنهما عن أشياء من القرآن فيجيبه، فيسأل ابن الأزرق من ابن عباس الدليل على ذلك من كلام العرب، فينشده ابن العباس شعرا.

سأل ابن الأزرق عن قوله تعالى: " فمنهم من قضى نحبه"، قال: أجله الذي قدر له. قال: وهل قالت العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول لبيد:

ألا لا تسألن المرء ماذا يحاول أنحبٌ فيقضى أم ضلال وباطلٌ

نظرا لهذه الغاية التعليمية كان ابن عباس يهتم اهتماما بالغا بالشعر ويستمع إلى كلام الشعراء بكلّ جدية وانهماك، ومضى كثير من النقاد العرب آثار ابن عباس يؤكدون هذه الوظيفة التعليمية للشعر. صرّح أبو زيد القرشي في مقدمة الجمهرة من وظائف الشعر العربي أنّه اتّخذت منه الشواهد على معاني القرآن والحديث، ولذلك عقد بابا سمّاه " ما وافق القرآن من ألفاظ العرب".

لقد جعل علماء علوم القرآن والتفسير معرفة الشعر الجاهلي شرطا من شروط تفسير المفسر والمفتي، وقد قال السيوطي: " وليعتن بحفظ أشعار العرب، فإنّ فيها حكما ومواعظ وآدابا، وبها يستعان على تفسير القرآن والحديث".

1. **الشعر وعاء اللغة:**

قد أشار النقاد القدامى إشارات واضحة إلى دور الشعر في حفظ اللغة وإثرائها، إذ أن الشعر وعاء اللغة ومستودعها، ولذا كان مادة أساسية في تعليم الشعر، وتنمية الملكة البلاغية، وتفصيح اللسان، وقد سأل معاوية –رضي الله عنه- الحارث بن نوفل: " ما علّمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض. فقال روّه فن فصيح الشعر، فإنّه يفتّح العقل ويفصح المنطق، ويطلق اللسان، ويدل على المروءة والشجاعة".، وقد حثت عائشة –رضي الله عنها- على تعلّم الشعر بقولها: " رووا أولادكم الشعر تهذّب ألسنتهم".

وضّح ابن فارس هذا الجانب فقال: " به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، منه تعلمّت اللغة" وصرح البقلاني أنّ الحاجة إلى الشعر لحفظ العربية.

اتفق العلماء والأدباء قديما وحديثا على أنّ الشعر لسان الزمان، والشعراء للكلام أمراء، يقصرون الممدود، ويمددون المقصور، ويقدّمون ويؤخرون ويومئون ويشيرون، وأنّ لغة الشعر تختلف عن النثر، لأنّ الشعر يشتمل على " اللفظ الجزل، والقول الفصل، المنطق الحسن، والكلام البيّن... وحسن التمثيل والاستعارة والتلويح والإشارة.

وللشعر وظائف أخرى كالتهذيب والتربية، حيث يساهم في تهذيب النفوس وإصلاحها وتربية الخُلق، والوظيفة النفسية، وقد صرح النقاد العرب أنّ الشعر يثير المشاعر النبيلة، فيحمل النفس على الطرب للفضيلة، والانقباض من الرذيلة، ثم يتعدى هذا الانفعال النفسي إلى سلوك عملي، ومواقف فعلية، يحمل فيها المتلقي على نقيض ما كان عليه من دنايا وانحطاط، فيسخى بعد الشح، ويشجع بعد جبن، ويستبشر بعد انقباض.

تلك وظائف الشعر في الأدب العربي القديم، وإن كانت مختصرة فهي متنوعة واضحة، فالشعر اكتسب المهابة والإجلال في نفوس العرب حتى كان ديوانهم وسجل معرفتهم، والمتمثل لحياتهم، لأنّه نشاط هادف جاد، وله وظائف كثيرة، وهي وظائف خلقية، تعليمية، نفعية هامة.